



عصفت في سوريا فترة مظلمة كأداء من تاريخها، فقد شوّهت كل شيء،

وكان خالي إحدى ضحايا هذه الفترة المظلمة من حكم البعث الاشتراكي الطائفي المقيت، فقد عضّ الفقر فذهب للعمل في الكويت ثم ألمانيا ثم البرازيل، ولم يرسل رسالة واحدة إلى أهله خلالها، ولم يعرفوا حتى عنوانه خلال عشرة أعوام، وظنوا أنه ربما مات، لكن جدتي كانت تذكره كل يوم، كيف لا وهو أصغر أولادها وأجملهم صورة، ولكن هل نسى خالي بلده!

بينما كنت ألعب مع الأطفال في بوابة بيت جدتي، وإذ بخالي يحمل حقائبها ويدخل، جريت لجدي عند خالي لأبشرها، فشهقت وهي تضرب على صدرها وتكرر (شبو توفيق؟) وأعدت الكلام مرات عليها، حتى استحييت من ذلك، إلى أن استوعبت ما كنت أقوله لها، وجرت وكأنها رجعت شابة.

أحضر خالي معه الكثير من النقود، وذالك بعد التعب الشديد وشظف العيش، فاشترى شقة جميلة في حي البياض الجديد، وفرشها بأجمل الأثاث، كما اشتري دكاناً في سوق الدباغة التجاري، وعمل به في بيع الملابس.

كان خالي يغلق دكانه وينذهب للصلاة حاماً منديله الأبيض، ويحيي جيرانه الجدد في الذهب والإياب، فقد خسرته الغربية كل أصدقائه، وأصبحت ابتسامته الجميلة جزءاً من وجهه المنعم، يذهب إلى سوق اللحم بطوفه محلًا تلو الآخر ليغثر على قطعة اللحم التي يشتهيها قلبه، ويشتري الفواكه للعصير ويشرب منها إبريقه اليومي، حتى غدت خدوده محمّرة ووجهه نضراً.

كما أن مزاجه قد أصبح رائقًا، فما أن تفتح المذياع على أغنية رقص حتى تراه قد خلع الجاكيت وبدأ الرقص، إنه سعيد بأنه

أصبح من الأغنياء المنعمين، وما بقي إلا أن يتزوج، ففعلها وأنجب ولداً جميلاً جداً على صورته...
نعم لقد أصبح الفقر أميراً واستعاد ذكرى غنى أبيه وتنعمه في الحياة، رغم أنه لم يدرك من أبيه سوى سنوات من العيش قبل أن يتّيّم، نعم لقد عاد خالي شخصاً آخر، لكنه لم يكن يعلم خبايا القدر.

في صباح الثاني من شباط 1982 سمع خالي صوت مناوشات رصاص انطلقت من حي البارودية، فلم يبالِي، فكثراً ما تقوم السلطة بالتمشيط والمداهمات واعتقال المطلوبين، أو قتل بعض الأفراد ورميهم بالشارع بيد عناصرها التي ترتدي الذي المدني، والذين يطوفون ليالٍ حماة بسيارة سوداء أطلق الجناة عليها اسم سيارة عزرايل.
وكان إطلاق النار خلال فترة النهار كثيراً ما يتبعه خوف الناس وجريهم بالشوارع (أطفالاً وكباراً وعجائز)، مترافقاً مع إنزال أبواب المحلات التجارية والجري للبيوت بسرعة، ولا تسمع إلا كلمة (علئت) أي علقت ولو لعلت بين الثوار والسلطة والكل في الشوارع يجري، وقد يكون الصوت أحياناً ناجماً عن انفجار عجلة سيارة فتهرب الناس إلى بيوتها حذر الموت، لقد تعودوا أعمال القتل العشوائي من السلطة،

كما اعتادوا رد المدافعين عن الناس بالسلاح ممن يسمونهم بالمجاهدين، الذين يخْبُون سلاحهم في حقائب الخضار البلاستيكية ويقفون للدفاع على أبواب الأزقة والأحياء (و ذات ليلة لم يقم المجاهدون بحماية حي بستان السعادة لخطأ ما، فقتلتها السلطة عشرات الأبرياء) وكان الناس كل الناس يحبّون هؤلاء المجاهدين ويمدّونهم ويتّون لهم المخابئ في بيوتهم، كما يتّون عليهم الأمل في الخلاص لأنهم أبناءهم، كما أنهم من خيرة الناس سمعة واستقامة، كيف لا وقادتهم من تلاميذ الشيخ الورع الدائم الصيت وهو الشيخ الحامد .

لكن هذا اليوم كان مختلفاً، فقد كشفت السلطة مكان قيادة المجاهدين في حي البارودية، وطوقته بالقوات تمهدًا لاكتساح المدينة المناضلة وكسر شوكتها المعارضة، لكن قيادة المجاهدين نادت باللاسلكي لبعض المجموعات لكسر الطوق وجاؤها فعلاً، لكن السلطة طوقتهم بدورها.. ثم طوق آخر من الثوار..

وانفجر الوضع في كل المدينة بين المجاهدين وجيش السلطة، وكلفت السلطة الجيش النظامي بقسم المدينة إلى قسمين عبر شارعي العلمين وسعيد العاص، بينما شرعت الجيوش الطائفية من القوات الخاصة وسرايا الدفاع والصراع وفتیان علي والوحدات الخاصة بالقتل الممنهج لجميع الشباب....

وقد حدث ذلك منذ السادسة صباحاً، أما في الثامنة والنصف منه فقد اصطادت المدفعية الماهره كل مآذن المدينة (عدا القصيرة جداً)، وخلال عشرين يوماً مسحت قوات الأسد الوحشية عدة أحياء بالراجمات والمدافع والديناميت وقتلت عشرات الآلاف من الأبرياء، وفجرت (55 مسجد و 2 كنيسة) بدون مبرر، وحرقت الأسواق بعد نهبها، وذاب سقف حديد سوقها الأساسي (سوق الطويل الأخرى) ونزل للأرض على شكل سائل من شدة الحرارة، كما قتل خلال المعركة 84 بالمئة من تنظيم المجاهدين، وكانت أياماً ترية أسدية بجداره.

كل هذا وخالي جالس في بيته لا يتحرك ولا يتدخل في شيء، وأمه له بالمرصاد، فلا تسمح له بالحركة خارج البيت رغم نفاد الخبز، وهنا أحمسَ خالي بالأساسة، فلماذا عاد لهذا الوطن! لكنه لا يعلم أن القايد أعظم.
انتهت الأحداث، وسمح بالتجول، وببدأ المهاجرون للأرياف والمدن الأخرى بالعودة وتفقد الأقارب والبيوت والأموال، وحملت السلطة الجثث المرمية في الشوارع بالجرافات، بواسطة رجال وضعوا الكمامات على أنوفهم..، وأودعوا قسم من القتلى في مقابرهم الجماعية داخل حماة، لكن معظمهم دفن في القرى النصيرية الموالية للنظام لستر فعلتهم، ولا يدرى أي إنسان من الأحياء أين دفن قريبه!، بل وهل هو مسجون أم مقتول كذلك! لكنني أعلم أن البعض دفن في الآبار والحدائق العامة أو ألقى في النهر.

وببدأ تجريف آلاف البيوت وعشرات المساجد والكنائس المدمرة، ولم يسمح بدخول الإعلام الخارجي للمدينة ليصور ما حدث، (وقال وزير الإعلام السوري الطائفى واصفاً الأحداث وقتها: بأن اشتباكاً حصل مع مهربين كانوا يعبرون المدينة) . استأذن خالي جدي بعد أربعة أيام من انتهاء الأحداث لتفقد محله الذي خبأ فيه كل ما يملك من المال (والذي وضعه في صرّة وعمل له مخبأً سرياً داخل محله، لأن القوات كانت تصادر كل المال والذهب من البيوت عند تفتيشها، بل وباسم تفتيشها) فسمحت له على أن لا يتأخر، فوعد بذلك.

تراجأ خالي بأن محله لم يسرق ولم يحرق فحمد الله على ذالك، وما هي إلا دقائق حتى عثر على صرّته كما هي فحمد الله أكثر، وهو بالعودة للبيت بسرعة ليبشر أمّه وينفذ وعده.

وقف خالي على موقف الباص يحمل صرّته بكلتا يديه، وينتظر الباص للذهاب إلى بيته وهو في غاية الفرح (وكان مقابل الموقف امرأة عجوز صديقة لجدي تراه من النافذة أمامها) فمررت سيارة زيل عسكرية، وطلبوها منه الصعود بصوتهم الأجش وتعاملهم الخشن وبنادقهم الجاهزة ولكنهم المعروفة، وتملّكه الخوف رغم شجاعته فصعد السيارة فوراً، ثم تابعوا بسرعة لصياد آخرين في الطرق.

لكن جدي ظلت تدعوا له كل يوم وبعد صلاة الصبح خاصة، كما بعد كل صلاة كذا لك أن يفك الله أسره، وتقرأ له السور والأدعية وتبحث عن أفضلها علّها تراه سريعاً، وتتضرع في هذا الدعاء مع البكاء لتستحث خطى السماء، وكان صوت دعائهما يتربّد حتى كادت تحفظه الجدران، وكان صوتها يصل بوضوح إلى الجيران، حيث خفت سمعها، كما وهن عظمها وابيض باقي شعرها، وقرب الأجل ولم يتحقق الأمل.

ماتت جدي بعد عشرين عاماً، وترمم عظامها، لكن خالي لم يعد بعد، كما لن يعود أبداً، لقد ذهب خالي في رحلته الأبدية مع 2500 رجل جمعوا في هذا اليوم، يوم جمعة الأحزان، (كما سمّاه أهالي حماه)، ولم يعد منهم أحد حتى اليوم، وبعد ثلاثين عاماً من الاعتقال.

شربت الأرض السورية الدماء البريئة، دماء خالي ودماء عشرات الآلاف غيره من المظلومين، فأنبتت حناجراً وخناجرأً وصموداً وإصراراً، وكانت صرخة حوران الأبية، وعمت الثورة كل البلدان من أرض سورية الحبيبة...
ولاح الأمل.. واقترب الانتصار من الله.. وحان يوم القصاص، بفضل مقاتلي جيشنا الحر البطل، فيا نعم الجهاد جهادهم،
ويَا نعم الأبناء هم.

(هذه قصة حقيقة بأكمالها لخالي الشهيد توفيق السمان، إكراماً لروحه).

(زر مدینتی حماه واسمع آلاف القصص، واقرأ كتابي الوثائقی: حماه مأساة العصر).

المصادر: